بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

بقلم أ.د/ أحمد كشك

ما كان للدرس النحوي أن يتألق ويبدع إلا بربط حباله النظاميَّة بسلوك اللغة الإبداعيَّة، لا اللغة النفعيَّة الَّتي تحكي ظاهرًا من الأمر ولا تلتبس بباطن النصِّ وفحواه، فما كان للنحو أن يستمتع بصواب مطروح لجمل مثل: متى تسافر إلى الإسكندريَّة يا سعيد؟ أسافر غدًا، ويكم اشتريت هذا الكتاب؟ ... إلخ

وإنما استمتاعه وألَقه بالصواب الموجود في:

كم ذا يُكابد عاشقٌ ويُلاقي في حبِّ مصرَ كثيرةِ العُشَّاقِ

***

وطني لو شُغِلتُ بالخُلدِ عنهُ نازعتني إليه في الخلد نفسي

***

قد يهون العمر إلا ساعةً وتهون الأرض إلا موضِعا

***

ذهب الَّذين أحبُّهم وبقيتُ مثل السَّيف فردا

إنَّ حركة الإبداع المخلوطة بالنظام النحويِّ ترى أنَّ النَّصَّ الإبداعيَّ ـ ومنه النصُّ الشعريُّ ـ لا يمكن أن يمور ويثرى ويُبهِر دون وعي بكون الظاهرة النحويَّة ظاهرة إبداعيَّة، وأنَّ النظام النحويَّ موصول بالنظام الفنِّيِّ؛ فهذا النظام وأهلوه منذ نشأته جرى وراء الشِّعر، حيث تمكَّنت فيه ظاهرة التأويل الَّتي جاءت مصالحةً مع المبدع، وتمكَّن فيه قانون الجواز الذي يتيح للمبدع الانتقاء والاختيار، والبحث عن الباطن فيه يفوق البحث عن الظاهر، والتعانق بين الأصل والفرع شريان هذا النظام، وقد جرت العلوم المؤسِّسة له من خلال ما صنع النحاة، ألم يكن نظام الإيقاع موردًا من موارد الخليل النحويِّ وأركانه لفنِّ الشِّعر؟ ألم يكن النظام القافويّ من وكد الأخفش تلميذ الخليل وسيبويه؟ ألم يتحدَّث سيبويه عن الضرورة الشِّعريَّة الَّتي أصبحت لدينا الآن بحثًا

ناهضًا في لغة الشِّعر؟ إن كتب القوافي والعروض والضرائر من صنع النحاة، وهذا الحاصل ينمُّ ويشي من البدء بأنَّ النظام النحويَّ وظَّف نفسه لصالح لغة الإبداع، فهو ليس غريبًا عنها، وهي ليست بمنأى عنه.

جاءت هذه الرسالة الباحثة عن إبداع شاعر معاصر كبير هو حسن كامل الصيرفي لتكشف عن حركة شعره، هذا الشاعر المصري الكبير المتعدِّد المواهب، الرومانسي الكلاسيكي الذي لم ينل حظًا كبيرًا من الرؤية والتحليل والتفسير، جاءت هذه الرسالة لتبرز أمرين:

- رؤية إبداعه المكثَّف صورةً ودلالة.
- ورصد الحركة النحويَّة الَّتي أسلمت إلى هذا الإبداع.

وقد جاء البثُّ اللغويُّ متعمِّقًا أمر حركة النحو الكبرى الَّتي تُعنى بالزيادة والحذف والتقديم والتأخير والفصل والاعتراض، وهي أمور تمثِّل شرف العربيَّة وشجاعتها ـ كما يقول ابن جنِّي في خصائصه، ومن خلال هذه العناية جاء البثُّ الدلاليُّ الفنِّيُّ الذي عبَّرت عنه هذه الحركة ليبيِّن في النهاية أنَّ النحو ليس إطارًا شكليًّا جاهزًا يوضع فيه كلام مرصوص، وإنَّما يوضع سبيكةً سياقيَّةً تتآزر مع الدلالة والصورة، أي تتلازم مع الإبداع.

جاءت هذه الدراسة من باحثٍ جادٍّ يملك حسًّا شعريًّا ووعيًا نحويًّا هو الأستاذ صالح الشاعر، الذي استطاع في رسالته ـ من خلال تحليلٍ عميق، ورؤيةٍ واضحة، ولغةٍ ميسورة ـ تقديمَ عملٍ طيِّب؛ فقد كشف أواصر التركيب اللغويِّ في شعر الصيرفي مستخدمًا في ذلك أدواتٍ بحثيَّةٍ بينيَّة، فيها من اللغة والبلاغة والإيقاع ما يربط الشاعر بسياقه المعاصر وموروثه السابق، وفيها من كشف الرؤى الجديدة ما يضع الشَّاعر موضعه الصحيح الجليِّ من حركة الشِّعر الحديث، ممَّا يجعل الباحث عن دلالات هذا الشِّعر وجماليَّاته وحركة اللغة المتماسكة فيه واجدًا مرامه ومبتغاه، ومن هنا أتمنى لقارئ الشِّعر المستمتع به أن يجد من خلال هذا البحث المقدَّم كشفًا للخبيء المستور؛ كي تظهر صورة شاعر مصر ـ حسن كامل الصيرفي ـ هالةً وضَّاءةً جميلة.

والله الموفِّق،،،

أ.د. أحمد محمد عبد العزيز كشك

2007/6/1م

مقدّمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم الأنبياء والمرسلين ، وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين

أمّا بعد

تتّخذ هذه الدراسة النصَّ الشعري مجالاً للدراسة النحويّة لما لارتباط النحو بالنصوص من الأهمّيّة ، فالدراسات النحويّة للنصوص تتميّز عن غيرها بأنّها تتجاوز النظريّة إلى التطبيق ، وتبتعد عن الجفاف الّذي توصف به الدراسات النحويّة النظريّة ، وممّا يميّز الدراسات النحويّة الدلاليّة أنّها لا تنظر إلى النظام النحويّ على أنه نظام تركيبيّ افتراضيّ ، ولكن على أنّه نظامٌ حيٌّ فعّال في النصوص ، مرتبط ارتباطًا وثيقًا بمعانيها ودلالاتها ، وهو حينئذٍ لا يكون مقصودًا بالدرس لذاته ، بل يكون وسيلةً لبلوغ الدلالة وفهم النصوص .

وتُعدُّ الدراسات النحويّة الدلاليّة نموذجًا مطلوبًا للتكامل بين العلوم اللغويّة من نحو وبلاغة وأدب ؛ فمن شأن هذا أن يوسّع آفاق النحو ويزيد من تطوّره ويعينه على القيام بمهمّته ، فالدراسات النحويّة الدلاليّة للنصوص وسيلة من وسائل تنمية الدراسات اللغويّة، وتُعَدُّ أساسًا للنقد الأدبيّ ؛ لأنّ مجال عملها هو البنية اللغويّة للنصوص ، وكلُّ عمل نقديٍّ في نصٍّ ينبغي أن ينبني عليها ويرجع إليها .

تعتمد هذه الدراسة على المبادئ العامّة للدراسات النحويّة الدلاليّة ، والّتي منها القصد إلى دراسة التركيب النحويّ من حيث هو ركن من أركان البناء الشعريّ يتضافر مع الأركان الأخرى لخدمة الدلالة ، وليس من مقاصدها دراسة التركيب الجاري على مقتضى القاعدة النحويّة الواجبة ؛ إذ لا مزيّة فيه تقتضي دراسته ، بل مدار البحث حول ما كان للشاعر فيه تصرُّف ، بأن يغيِّر في التركيب النحويّ ويفاضل بين الأساليب ويختار من بين ما هو جائز ومتسع له ما يناسب الوجهة الدلاليّة الّتي يريدها ، فهذا الاختيار هو الّذي يبرز مقدرة الشاعر وامتلاكه لأدواته وقدرته على تطويع لغته لخدمة الدلالة الّتي يقصد إليها ؛ إذ ليس في النحو جائز مستوي الطرفين بالمعنى الحرفيّ ، وإنّما يرجّح أحدهما تبعًا لمقتضى مقام الكلام وغرض المتكلّم .

كان اختياري لشعر حسن كامل الصيرفي على وجه الخصوص مبنيًا على عدَّة أسباب، منها :

1- أنّ شعره ـ فيما أعلم ـ لم يُتناول من قبل في دراسة نحويَّة دلاليَّة .

2- وهو شاعر متميِّز بوعيه اللغويّ واحترامه للُّغة العربيّة ، وشعره ينطق بهذا ، وكان من مبادئه رفض استعمال العاميَّة في الأدب[1].

3- وقد كان الصيرفي عضوًا مؤسِّسًا لمدرسة (أبولُّو) الشِّعريَّة الَّتي كانت تهدف إلى الارتقاء بالشعر والشعراء .

4- وساهم في الحركة الثقافيَّة في مصر منذ العقد الثالث من القرن العشرين ، شاعرًا ومؤلِّفًا ومحرِّرًا.

5- ومارس التحقيق العلمي ، وكانت له صحبة مع التراث العربيّ وأخرج كثيرًا من كتب القدماء ودواوينهم .

6- ونال ثقة العديد من الأجهزة الثقافيَّة والعلميَّة ، وكان عضوًا مراسلاً لمجمع اللغة العربيَّة السوريّ .

7- وكانت له شاعريَّة متدفِّقة ، حيث بلغ نتاجه الشعريّ أربعة عشر ديوانًا.

8- وأعلام اللغة والأدب يُثنون عليه شاعرًا مجوِّدًا ممتازًا، ومحقِّقًا ثبتًا فاضلاً[2].

وقد انصبَّ اهتمام البحث على ما فيه تغيير مقصود من الشاعر للتراكيب النحويَّة ، وانتظمت هذه القضايا في أربعة فصول لأربع ظواهر نحويّة هي :

1- الحذف 2- الزيادة 3- التقديم والتأخير 4- الفصل والاعتراض

على تفصيل الخطَّة الآتي بيانها :

- المقدمة
- التمهيد ، وفيه مقالتان :

1- حسن كامل الصيرفي .

2- الدراسات النحويَّة الدلاليَّة .

---

(1) انظر : مجلة أبولو / مارس 1964م ..

(2) انظر ما نقلته من ذلك في التعريف بالشاعر .

الفصل الأوَّل : الحذف

المبحث الأول : حذف الحركات
المبحث الثاني : حذف الحروف
المبحث الثالث : حذف الأسماء
المبحث الرابع : حذف الأفعال

الفصل الثاني : الزيادة

المبحث الأوَّل : زيادة حرف أحادي البناء
المبحث الثاني : زيادة حرف ثنائي البناء

الفصل الثالث : التقديم والتأخير

المبحث الأول : تقديم الاسم المفرد
المبحث الثاني : تقديم شبه الجملة
المبحث الثالث : تقديم ما يرد مفردًا وجملة وشبه جملة

الفصل الرابع : الفصل والاعتراض

المبحث الأول : الفصل
المبحث الثاني : الاعتراض

يلي ذلك الخاتمة والفهارس.

وقد كان البحث في هذه الظواهر منطلقًا من الأحكام النحويَّة المستقرَّة ، ومستشهدًا بالنصوص الفصيحة ، ثمَّ متعرِّضًا ـ في نماذج دالَّة ـ لمواضع ورودها في شعر الصيرفي ، مع بيانٍ وافٍ لدلالات استعماله لها وميل سلوكه النحويّ إليها .

وكان منهج عرض الفصول التوطئة بإيجاز لكلِّ فصل ببيان حقيقة الظاهرة الَّتي يتضمَّنها وما يتعلَّق بها من أحكام ، ثمَّ دراسة الصور الواقعة من هذه الظاهرة في شعر الصيرفي ، وكان منهج بحث القضايا العرض الوافي لجوانبها وموقعها من الدرس النحوي وما يتصل به من علم المعاني ، ثمَّ عرض وتحليل لنماذج دالَّة من استعمال الصيرفي لها، متضمِّنًا ما رمى إليه باستعمالها من معانٍ ودلالات ، ثمَّ ختام كلِّ فصل بخلاصة فيها أهمُّ ما أبانت عنه دراسة الظاهرة .

الدراسات السابقة لشعره :

لم أطَّلع على دراسة تتَّخذ شِعرَ حسن كامل الصيرفي مجالاً لدراسةٍ نحويَّة ، وإذا اعتبرنا الدلالة غايةً لجميع الدراسات النقديَّة والفنيَّة فدراستي هذه هي الوحيدة الَّتي

اتَّخذت الظواهر النحويَّة وسيلةً لفهم الدلالة بين الدراسات الأخرى لشِعر حسن كامل الصيرفي،وبهذا فهي متَّفقة معها في الغاية ومختلفة في الوسائل،وأذكر من تلك الدراسات:

- حسن كامل الصيرفي وتيَّارات التجديد في شِعره ، كتاب للدكتور محمَّد سعد فشوان ، عام 1985م .
- الاتِّجاهات الرومانسيَّة في شِعر حسن كامل الصيرفي ، كتاب للدكتور مصطفى علي عمر ، عام 1985م .
- شِعر حسن كامل الصيرفي دراسة نقديَّة ، رسالة ماجستير بدار العلوم بالقاهرة لمحمَّد فتحي عبد العليم ، عام 1992م .
- الاتِّجاه الوجداني في شعر الصيرفي ، رسالة ماجستير بكلِّيَّة الآداب بجامعة القاهرة لفادية أحمد محمَّد عبد الباقي ، عام 1999م .
- شعر حسن كامل الصيرفي دراسة فنِّيَّة وموضوعيَّة ، رسالة ماجستير بكلِّيَّة الآداب بجامعة عين شمس لطلعت خليل هاشم عبد العال ، عام 2001م .

وإنِّني أتقدَّم في هذا المقام بالشكر الجزيل لكلِّ من أعانني على إتمام هذا البحث في شتَّى مراحله ، وأخصُّ بالشكر مشرفي الفاضل أ.د / أحمد كشك الَّذي لم يدَّخر جهدًا في رعاية البحث والباحث ، وقام بذلك على أتمِّ وجه مع كثرة مشاغله وجسامة مسؤوليَّاته، وأفادني علميًّا ومنهجيًّا بما لا أقدر على مكافأته ، فجزاه الله حسن الجزاء، وبارك في علمه وعمله .

وأشكر كلَّ من أعان في تقويم البحث وتعليم الباحث ، وأدعو الله أن يوفِّيهم أجورهم ويزيدهم من فضله ، إنَّه جوادٌ كريم .

وبعد ... فهذه دراستي لشعر حسن كامل الصيرفي ، نحويَّة في وسائلها ، دلاليَّة في مقاصدها ، تراثيَّة في مرجعيَّتها ، حديثة في مادَّة بحثها ، لا أزعم لها الكمال وإن توخَّيته ، وأعلم أنِّي مع اجتهادي أخطئُ وأصيب ، وأسأل الله أن لا أُحرَم أجر الاجتهاد ، وأن يوفِّقني ويزيدني علما .

﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾

صالح الشاعر

تمهيد

فيه مقالتان :

- **الأولى** : حسن كامل الصيرفي .
- **الثانية** : الدراسات النحويَّة الدلاليَّة .

حسن كامل الصيرفي (*)

حياته :

وُلد حسن كامل الصيرفي بدمياط في 6 سبتمبر عام 1908م ، وبدأ نظم الشعر في سنٍّ مبكّرة منذ عام 1923م ، وتلقى دراسته الابتدائيّة والثانويّة ثمّ غادر المدرسة ولمّا يكمل المرحلة الثانويّة لظروفٍ قاهرة ، ولكنّه استمرّ في تثقيف نفسه بالقراءة والتمرُّن على كتابة الشّعر ، والتحق عام 1927م بوظيفة بوزارة الزراعة ، ثمّ انتقل إلى سكرتارية رئاسة مجلس النُّوّاب (مجلس الأمّة فيما بعد) عام 1942م ، وشغل بعد ذلك فيه إدارة الصحافة حتّى أُحيل على التقاعُد عام 1968م .

وتُوُفّي حسن كامل الصيرفي في 20 مايو عام 1984م [1] .

إسهاماته الثقافيّة :

- عاون في تحرير مجلّة (العصور) الّتي صدرت عام 1927م .
- ونشر من شعره في مجلّة (المقتطف) منذ أوائل الثلاثينات ، وتولّى فيها باب الكتب الجديدة ناقدًا ومعرِّفًا.
- وشارك في تحرير الصفحات الأدبيّة في جريدتي (الجهاد) و(الضياء) ، وصحيفة (الوادي) منذ عام 1931م .
- واشترك مع الدكتور أحمد زكي أبي شادي في تأسيس جمعيّة (أبوللو) الشّعريّة ، وانتُخب عضوًا في مجلس إدارتها ، وقام بنصيبٍ كبيرٍ في تحريرها منذ صدورها عام 1932م .

(*) مصادر الترجمة : ما كتبه الصيرفي عن نفسه في مقدّمة ديوان (الألحان الضائعة) ، وما كتبه د. محمّد سعد فشوان في كتابه (حسن كامل الصيرفي وتيارات التجديد في شعره) نقلاً من رسالة الصيرفي إلى د. شكري فيصل ، أمين مجمع اللغة العربيّة بدمشق ، ومقدّمة د. عبد الحميد يونس لديوان (شهرزاد) ، ومحاضرات د. محمّد مندور عن (الشعر المصري بعد شوقي) في حلقته الثانية عن جماعة أبوللو ، إضافةً إلى كتاب (شعراء ودواوين) لأحمد مصطفى حافظ ، ومراجعة الرسائل العلميّة : شعر حسن كامل الصيرفي دراسة نقديّة لمحمّد فتحي عبد العليم ، وشعر حسن كامل الصيرفي دراسة فنّيّة وموضوعيّة لطلعت خليل هاشم .

(1) حركات التجديد في الشّعر الحديث /154 .

- واشترك مع الدكتور عبد الحميد يونس في إصدار مجلّة (الراوي الجديد) عام 1935م .
- وانتدبته وزارة الإرشاد القومي ـ وزارة الثقافة فيما بعد ـ لإخراج مجلّة (المجلّة) عام 1965م وتولّي سكرتارية تحريرها مع الدكتور محمد عوض محمد ، ثمّ مع الدكتور حسين فوزي ، فالدكتور علي الراعي ، فالأستاذ يحيى حقّي.
- وبعد توقّف مجلّة (المجلّة) عن الصُّدور تفرّغ لإدارة تحرير مجلّة (الكتاب العربيّ) الّتي أصدرتها مؤسّسة الثقافة بوزارة الثقافة .

وقد كان حسن كامل الصيرفي عضوًا في عدّة مواقع ثقافيّة ، حيث اختير :

- عضوًا بلجنة الشّعر في المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعيّة .
- ثمّ كان عضوًا بلجنة الدراسات الأدبيّة بالمجلس نفسه.
- واختير عضوًا بلجنة التفرُّغ بالهيئة العامّة للفنون بوزارة الثقافة.
- واختير أيضًا عضوًا بلجنة الأدب بالمجلس القومي .
- وانتخبه مجمع اللغة العربيّة بدمشق عضوًا مراسلاً ممثّلاً لجمهوريّة مصر العربيّة عام 1972م .

الصيرفي محقّقًا :

استغلّ الصيرفي موهبته الشّعريّة في تحقيق التراث العربيّ ، فأخرج عددًا من الكتب والدواوين ، وقد جرى في إخراجها " على نهجٍ مُعجِبٍ في التخريج والتحقيق " كما قال فيه الدكتور محمود الطناحي[1] ، ومنها :

1- ديوان (البحتري) .
2- كتاب (لطائف المعارف) للثعالبي.
3- كتاب (طيف الخيال) للشريف المرتضى .
4- ديوان (عمرو بن قميئة) .
5- ديوان (المتلمّس الضُّبعي) .
6- ديوان (المثقّب العبديّ) .
7- ديوان (عمرو بن كلثوم) .
8- ديوان (المرقّشَيْن: الأصغر والأكبر).

---

(1) أمالي ابن الشجري ، مقدّمة المحقّق د. محمود الطناحي /12 .

9- ديوان (الحارث بن حلِّزة اليشكُري). 10- ديوان (لقيط بن يعمُر الإيادي) .
11- ديوان (الحماسة) للبحتريّ .
12- كتاب (عبث الوليد) لأبي العلاء المعرِّي.
13- كتاب (الاختبارين) للأخفش .

وعدا ذلك قام الصيرفي بتأليف كتاب (حافظ وشوقي) ونشره فصولاً في مجلّة (المقتطف) ، ثمَّ طُبع عام 1948م ، وقام بتحقيق كتاب (طوق الحمامة) ونشرته مطبعة حجازي عام 1950م [1] .

شِعره :

خلَّف الصيرفي عددًا من الدواوين ، طُبِعَ منها في حياته :

1- الألحان الضائعة (1934م) . 2- الشروق (1948م) .
3- صدى ونور ودموع (1960م) [وهي مجموعة ثلاثيَّة ضمَّت دواوينه (رجع الصدى) ، (حول النور) ، (دموع وأزهار)] .
4- شهرزاد (1980م) . 5- عودة الوحي (1980م) .
6- صلواتي أنا (1982م) . 7- النبع (1982م) .
8- نوافذ الضياء (1982م) . 9- زاد المسافر (1982م) .

وله خمس دواوين لا تزال مخطوطة ، هي :

1- قطرات الندى . 2- ورقات متفرِّقات . 3- زهرات لا تذبل .
4- نغمات ونسمات . 5- همسة العطر للنسم .

وشعره محلّ البحث في هذه الدراسة هو المطبوع دون المخطوط ؛ فهو الَّذي أظهره الشاعر في حياته وخضع للنقد والنظر ، وفيه ما يُغني عن المخطوط.

---

(1) لم يذكر الصيرفي هذين الكتابين في تعريفه بنفسه ، وإذا لم يكن ناسيًا فلعلّه لم يكن راضيًا عن المستوى العلميّ لهما ، وممَّا يدلُّ على ذلك الانتقادات الَّتي وجَّهها د. الطاهر أحمد مكّي - في مقدِّمة تحقيقه لكتاب (طوق الحمامة) ص 7 - إلى تحقيق الصيرفي له .

من الأقوال فيه :

يقول الدكتور أحمد زكي أبو شادي: " لقد انتظمت مدرسة أبولو شعراء ممتازين، ولها أن تفتخر كلَّ الافتخار بالصيرفي وشعره ؛ فهو ثروة جديدة للشعر المصري الحديث وللشعر العربي عامّة .... " [1] .

ويقول الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي : " رحم الله الصيرفي ؛ لقد كان شاعرًا مجوِّدًا وصاحب موهبة شعريَّة محلِّقة ... " [2] .

ويقول الدكتور محمود محمد الطناحي:" ودعاء بالمغفرة والرضوان للشاعر المبدع، والمحقق الثبت الأستاذ حسن كامل الصيرفي، هذا الرجل الّذي عبر دنياه كنسمة هادئة ... مخلصًا لفنِّه الشعريِّ، باذلاً أقصى جهده في إخراج نصوص التراث ... " [3] .

ويقول الدكتور محمد سعد فشوان : " وننتقل إلى الشاعر حسن كامل الصيرفي وهو من شعراء أبولو الّذين أحسنوا استغلال اللفظ في الشعر استغلالاً بديعًا ..." [4] .

---

(1) تصديره لديوان الألحان الضائعة /5 .

(2) مدارس الشعر الحديث /93 .

(3) مقدمة أمالي ابن الشجري /12 .

(4) مدرسة أبولو الشعرية في ضوء النقد الحديث /141 ، وفي هذا الكتاب عرض لبعض ما كتب عن الصيرفي في نقد الألحان الضائعة ، من ص41 إلى ص44 .

الدراسات النحويَّة الدلاليَّة

من المعلوم أنَّ لكلِّ فنَّانٍ مادَّة يعمل فيها ، " فهو يبني بالحجر أو باللون أو بالكلمات " [1] ، والكلمات هي المادَّة الَّتي يعمل فيها الأديب ، و" العمل الأدبيُّ لا يُدرَك إلاَّ من خلال لغته " [2] .

وتُعدُّ الدراسات اللغويَّة مطلبًا مُهمًّا لفهم المعنى ، فهو موضوعها الأوَّل والأخير ، أو هكذا ينبغي أن يكون [3] .

وارتباط دراسة النحو بالمعنى والمضمون غايةٌ يدعو إليها كثيرٌ من أساتذة اللغة العربيَّة ، ويؤكِّدون على ضرورة مزج معطيات علم النحو بمعطيات علم المعاني لتنظيم دراسة الفصحى على أساس جديد [4] .

والمزاوجة بين النحو والمعنى ليست بدعًا ابتدعه باحثونا المحدثون ، إنَّما هو عودةٌ إلى ما قرَّره علماء النحو الأوائل من أهمِّيَّة المعنى للنحو ، وارتباطهما على نحوٍ لا يمكن معه فصلهما إلاَّ بخسارةٍ بيِّنةٍ لكليهما .

ومن العبارات الجامعة في بيان أهمِّيَّة المعنى قول المبرِّد : " فكلُّ ما صلح به المعنى فهو جيِّد ، وكلُّ ما فسد به المعنى فهو مردود " [5] ، وهي عبارةٌ صريحةٌ في جعل المعنى معيارًا للحكم النحويِّ .

ومن الأصول الَّتي رفعت من قيمة المعنى قول ابن جنِّي : " وذلك أنَّك تجد في كثيرٍ من المنثور والمنظوم الإعراب والمعنى متجاذبَيْن ، هذا يدعوك إلى أمرٍ ، وهذا يمنعك منه ، فمتى اعتورا كلامًا ما أمسكتَ بعروة المعنى ، وارتحتَ لتصحيح الإعراب " [6] ، وهو بهذه العبارة " أمسكتَ بعروة المعنى " يجعل المعنى هو الغاية الأولى ، وقد أرجع ابن جنِّي أكثر الآراء المختلفة والأقوال المستشنعة إلى مراعاة ظواهر التراكيب دون البحث عن سرِّ معانيها ومعاقد أغراضها [7] ، وهذا ليس غريبًا منه ؛ فهو الَّذي أكَّد

---

(1) الفنون والإنسان /67 . (2) مفاهيم نقديَّة /436 . (3) انظر : اللغة العربيَّة معناها ومبناها /9 .
(4) انظر : السابق /18 . (5) المقتضب 311/4 . (6) الخصائص 255/3 .
(7) انظر : السابق 260/3 .

" غلبة المعنى للّفظ وكون اللفظ خادمًا له " [1] بناءً على علمه بلغة العرب الّتي وجدها في بعض الأحيان "تحمل على ألفاظها لمعانيها حتّى تُفسِد الإعراب لصحّة المعنى"[2].

ولم يكن ابن جنّي آخر من دعا إلى الاهتمام بالمعنى ، فهذا ابن هشام حين ذكر الجهات الّتي يدخل الاعتراض على المعرب من جهتها جعل أوّلها : أن يُراعي ما يقتضيه ظاهر الصناعة ولا يُراعي المعنى ، وجعل أوّل واجبٍ على المعرب أن يفهم معنى ما يُعربه ، فكم زلّت الأقدام بسبب هذا الفصل بين صنعة النحو والمعنى [3] .

لا جدال إذن في أهمّيّة دراسة النحو على أساس المعنى ؛ فهي ضرورةٌ فوق كلّ ضرورة ، وهي تُكسِب موضوعات النحو جِدّة وطرافة ، وتبرز مزايا اللغة العربيّة الدافقة بالحيويّة، الحافلة بالمعاني الدقيقة الجميلة [4]، وتجعلنا نرى النحو على حقيقته، " على أنّه تحصيل الخبرات المتنوّعة بأساليب العربيّة وتراكيبها ، لا على أنّه التمييز بين صحّة الكلام وخطئه فحسب " [5] .

وتكمن أهمّيّة المعنى في أنّه قوام اللغة ، فاللغة أصواتٌ ، إلاّ إذا عبّرت عن معنى فحينئذٍ تكون لغة، ولا انفصام بين الشكل والمحتوى ؛ لأنّه لا وجود لأيٍّ منهما بدون الآخر ، وانتزاع أحدهما من الآخر قتلٌ للاثنين [6]؛ إذ لا يظلّ شيءٌ من شكل القصيدة ولا بنيتها العروضيّة ولا علاقاتها الإيقاعيّة عندما تُفصَل عمّا تحتويه من معنى [7] .

والمعنى الّذي تهتمّ به الدراسات اللغويّة الحديثة تدعو الحاجة المنهجيّة إلى جعله ثلاثة معانٍ فرعيّة :

أحدها : المعنى الوظيفيّ ، وهو وظيفة الجزيء التحليليّ في النظام أو في السياق على حدٍّ سواء .

والثاني : المعنى المعجميّ للكلمة ، وكلاهما – الأوّل والثاني – متعدّدٌ ومحتملٌ خارج السياق ، وواحدٌ فقط في السياق .

والثالث : المعنى الاجتماعيّ ، أو معنى المقام ، وهو أشمل من سابقَيْه ويتّصل بهما على طريق المكانمة ؛ لأنّه يشملهما ليكون بهما وبالمقام معبّرًا عن معنى السياق في إطار الحياة الاجتماعيّة [8] .

---

(1) الخصائص 237/1 .
(2) المحتسب 211/2 .
(3) انظر : مغني اللبيب /684 .
(4) انظر : معاني النحو /8 .
(5) النحو والدلالة /164 .
(6) انظر : مفاهيم نقديّة /51 .
(7) انظر : السابق /50 .
(8) اللغة العربيّة معناها ومبناها /28 ، 29

ومن أهمّ الوسائل الّتي يقترحها الباحثون لدراسة النحو على أساس المعنى : الربط بينه وبين علم المعاني ، بل إنّ الأستاذ الدكتور تمّام حسّان يستحسن " أن يكون علم المعاني قمّة الدراسات النحويّة أو فلسفتها إن صحّ التعبير"[1]،فبهذه الطريقة يصبح للنحو (مضمون) ، ويتجاوز الضعف الّذي لحقه بسبب فصله عن المعنى، وهو يتنبّأ بأنّ هذا الجمع والمزج بين معطيات علم النحو ومعطيات علم المعاني سوف يوصل إلى " تنظيم دراسة الفصحى على أساسٍ جديدٍ لم يخطر ببال سيبويه ولا ببال عبد القاهر" [2].

إنّ علوم العربيّة يجب أن تتكامل وتجتمع لتقوم بوظائفها الحيويّة كأجزاء مؤثّرة وفعّالة في البناء الكلّيّ ، وخاصّةً في دراسة النصوص ؛ فالنصّ لا يُكتشَف بوسائل متشرذمة ، والنظرة الضيّقة إليه من منطلق تخصّصٍ واحد تضيعه ، وتفقده فعاليّته وروحه، فلا يبقى منه شيء [3] .

هذا ، ويؤكّد النقّاد على أهمّيّة اللغويّات الهائلة في دراسة الأدب [4] ، وعلى صلتها الوثيقة بالدراسات الأسلوبيّة للنصوص [5] ؛ فالنحو من أهمّ أدوات الفهم الأدبيّ [6] ، وهو مدخلٌ صحيحٌ لفهم النصوص وتفسيرها [7] ، وإذا كانت كلّ دراسة لغويّة لها غايةٌ واحدةٌ هي فهم النصّ وتجليته وكشفه [8] ، " وكلّ عمل يجعل النصّ نفسه مجالاً له عملٌ مثمر " [9] فهذا يعني شيئًا واحدًا هو أهمّيّة العودة بالدرس النحويّ إلى النصوص اللغويّة الحيّة والعمل من خلالها على شرح المعنى النحويّ الدلاليّ فيها ، فمن شأن هذا أن يعود بأعظم النتائج على النحو والأدب معًا ، وعلى متعلّمي العربيّة والراغبين فيها [10] .

الشّعر من الأنواع الأدبيّة المتميّزة ؛ لما له من نظامٍ لغويٍّ خاصٍّ داخل النظام اللغويّ العامّ [11] ، والشاعر في سبيل وصوله إلى تجربةٍ خاصّةٍ مع اللغة تحمل بصْمَتَه فإنّه يقوم بعددٍ من التجاوزات - أو العدول - عن المستوى المعياريّ – أو النموذجيّ – للاستعمال اللغويّ [12] .

---

(1) اللغة العربية معناها ومبناها/18. (2) السابق /336 . (3) انظر: من التحليل اللغويّ للنصوص/8، 9.
(4) انظر : مفاهيم نقديّة /436 . (5) انظر : السابق /431 . (6) انظر : النحو والدلالة /164 .
(7) انظر : الجملة في الشعر العربي /219 . (8) انظر : النحو والدلالة /161 .
(9) النحو والدلالة /174 . (10) انظر: الجملة في الشعر العربي/220 ، والنحو والدلالة/180 .
(11) انظر : ظواهر نحويّة في الشّعر الحرّ /15 . (12) انظر : السابق /16 .

والشعراء إنّما يرتكبون هذه التجاوزات والمخالفات لأنّهم يستخدمون القواعد النحويّة بوصفها نقطة انطلاق ، ينطلقون منها يوتّرونها ويحاولون عن طريقها الحصول على أكثر الطرق فاعليّةً وتأثيرًا لقول ما يريدون [1] .

وما برح النحاة من مبدإ التصنيف في هذا العلم يردّدون ما يُشعِر باختلاف لغة الشعر في بعض مناحيها عن اللغة المألوفة في الكلام ، كقول سيبويه : " اعلم أنّه يجوز في الشّعر ما لا يجوز في الكلام " [2] ، وقول ابن جنّي : " والشّعر موضع اضطرار وموقف اعتذار ، وكثيرًا ما يُحرَّف فيه الكلم عن أبنيته ، وتحال فيه المُثُل عن أوضاع صيغها لأجله " [3] ، وقول ابن عصفور : " اعلم أنَّ الشّعر لمّا كان موزونًا يخرجه الزيادة فيه والنقص منه عن صحّة الوزن ويحيله عن طريق الشّعر ، أجازت العرب فيه ما لا يجوز في الكلام ، اضطرُّوا إلى ذلك أو لم يضطرُّوا إليه ؛ لأنّه موضعٌ أُلِفت فيه الضرائر " [4] .

في الشّعر إذن خروجٌ عن اللغة المألوفة في حياة المتكلّمين [5] ، وفيه من الظواهر النحويّة ما هو موافقٌ للقواعد وما هو مخالفٌ لها ، وتبدو المخالفات فيه وكأنّها تنبيهٌ مستمرٌّ متّصلٌ للأذهان لاستكشاف دور الاستعمال المألوف الّذي يُفقِد إلفه والاعتيادُ عليه الإحساسَ به والتنبُّهَ له [6] ، واستكشاف الظواهر وتفسيرها وظيفة النحو ، فتحليل العمل الفنّيّ في الدراسات الوصفيّة والأسلوبيّة ، والملاحظة ، والتصنيف ، وتحديد المميّزات ، كلّ هذا من النحو غير بعيد [7] .

وأوّل ما يهمُّ علم النحو في دراساته هو ذلك الارتباط بين المفردات والنظام النحويّ، ومراعاة التفاعل بين الوظيفة النحويّة والمفرد الّذي يشغلها هو ما سُمّي في الحديث (المعنى النحويّ الدلاليّ) [8] ، وعبّر عنه – قديمًا – عبد القاهر الجرجاني بـ(النظم)، وأفاض في شرحه وبيان جوانبه، ومن عباراته في ذلك قوله:"والألفاظ لا تفيد حتّى تؤلّف ضربًا خاصًّا من التأليف ، ويُعمَد بها إلى وجهٍ دون وجه من التركيب والترتيب " [9] ، وقوله : " واعلم أنك إذا رجعت إلى نفسك علمت علمًا لا يعترضه الشكُّ أنْ لا نظم في

---

(1) انظر : ظواهر نحويّة في الشعر الحرّ /24 .
(2) الكتاب 26/1 .
(3) الخصائص 188/3 .
(4) ضرائر الشعر /13 .
(5) انظر : ظواهر نحويّة في الشعر الحرّ /25 .
(6) انظر : السابق /12 .
(7) انظر : مفاهيم نقديّة /431 ، 439 ، 440 .
(8) انظر : النحو والدلالة /175 .
(9) أسرار البلاغة /4 .

الكلم ولا ترتيب حتى يُعلّق بعضها ببعض ويُبنى بعضها على بعض وتُجعل هذه بسبب من تلك ، هذا ما لا يجهله عاقل ولا يخفى على أحدٍ من الناس " [1] ، وقوله : " ... لا يُتصوَّر أن تعرف للفظ موضعًا من غير أن تعرف معناه ، ولا أن تتوخّى في الألفاظ من حيث هي ألفاظ ترتيبًا ونظما ، وأنّك تتوخّى الترتيب في المعاني وتُعمل الفكر هناك ، فإذا تمّ لك ذلك أتبعتها الألفاظ وقفوت بها آثارها ، وأنّك إذا فرغت من ترتيب المعاني في نفسك لم تحتج إلى أن تستأنف فكرًا في ترتيب الألفاظ ، بل تجدها تترتّب لك بحكم أنها خدمٌ للمعاني وتابعةٌ لها ولاحقةٌ بها ، وأنَّ العلم بمواقع المعاني في النفس علمٌ بمواقع الألفاظ الدالّة عليها في النطق " [2] .

وما زالت نظريَّة عبد القاهر تجد أصداء لها حتّى في غير النقد العربيّ ، فالناقد الفرنسيّ فاليري يؤكّد على الشكل بمعنى الترتيب ، أي على الكلمات وقد اتخذت لها ترتيبًا معيّنًا [3]، ويقول الناقد الإنجليزي أ.أ.ريتشاردز : "إنَّ كمّيّة الألفاظ الّتي في متناول الشاعر لا تحدّد منزلته بين الشعراء،وإنّما الّذي يحدّد مكانته الطريقة الّتي يستخدم بها هذه الألفاظ،فالمهمّ هو مدى إحساس الشاعر بطاقة الألفاظ على تعديل بعضها البعض، وعلى تجميع تأثيراتها المنفصلة في العقل واتّخاذها موضعها المناسب في الاستجابة ككلّ" [4] .

كلُّ هذا غايته واحدة، وهي بيان أنَّ المعنى مؤسَّسٌ على أمرين : الاختيار الدقيق للكلمات ، ورصفها بعنايةٍ في نظامها النحويّ [5]،ولهذا فإنَّ وصف النظام التركيبيّ للشعر أو تحديد البناء النحويّ للجمل فيه لا يمكن أن يتمَّ على نحوٍ مفيد دون أن يرتبط بما تؤدّيه التراكيب والجمل من دلالة ؛ لأنَّ عزل النظام النحويّ عن الشّعر لا معنى له [6]، فالتعاون الوثيق بين الشكل والمعنى هو "سرُّ الأسلوب الأكبر في الشّعر" [7] ، وإظهار صور هذا التعاون وفوائده هو مقصد الدراسات النحويّة الدلاليّة .

---

(1) دلائل الإعجاز /55 .
(2) السابق /53 ، 54 .
(3) انظر : مفاهيم نقديّة /53 .
(4) العلم والشعر /55.
(5) النحو والدلالة /166.
(6) انظر: الجملة في الشعر العربي /87.
(7) مفاهيم نقديّة /54.